وإني شجاع لا على كل حية سوى حية صيغت من الشعر في الخد!

وفي الأبيات الآتية تبدو حيرته ويتجسم قلقه، فله من قصيدة:

يمزقني ذا الحب كل ممزق ويصبح خلقي فيه وهو جديدُ
مقيم وقلبي في ركابك سائر قريب - ولكن ما أريد، بعيدُ

وله من قصيدة أخرى:

ليال تقضت ليس يوم براجع إليها ولكن الليالي سترجعُ
فياليت أسباب الليالي تقطعت كأسبابنا فيها إذا تتقطعُ
وإن فرطت منا وأعيي اتباعها فياليت أن النفس لا تتتبعُ
وإن كان قلبي بين جنبي حاضراً فليت هموم القلب لا تتبوعُ
وبيني وبين النائبات وقائع يهونها الموت الذي أتوقعُ
فكل زمان ليس لي فيه صاحب وكل حبيب ماله فيّ موضعُ!

وقال في حبيب مريض، وفيها تصوير لنفسه بديع:

وما عدته بل عدت سقمي بقربه ومما به ما بي عليه قريب
أغيب برغمي ثم أحضر غائباً وأنظر آثار الضنا فأغيب!

وقال مداعباً:

بين الضلوع جهنم من حبهم فوددتهم لا يسمعون حسيسها
فمع الظلام الدمع كان طليقها ومع الصباح الهم كان حبيسها

وقال:

وما قضى الدهر لي من قربه وطراً إلا اقتضى الوطر المقضي أوطارا
يا من شقيت به دنيا وآخرة ترى عرفت سوى الدارين لي دارا؟
أشقى البرية منظوراً ومنتظراً هذا الضعيف الذي يهواك جبارا!

ومن شعره الموسيقي العذب قوله:

وقف الطيف بجفني كالخفل سائلاً أين الكرى أين رحل
إنما كان الكرى يسكنها فالكرى من وصلهم ثم انتقل
إنه يا طيف طوفان طغى وابن نوح ليس ينجيه الجبل
إن قلبي من قلوب لم تبن سرها لو لم تبينه المقل
حالت الأشياء عن حالاتها فتولى الماء إيقاد الغلل

هذه أمثلة من شعره الغزلي، وما هي إلا قطرة من بحره الفياض؛ ومنها نستطيع أن نحكم على نفسيته؛ وهي لا تتعدى ما قال المؤرخون فيه.

«يتبع»

محمد سعيد العريان

فردريك نيتشه

FRIEDRICH NIETZSCHE

للأستاذ ابراهيم ابراهيم يوسف

عصره — مولده — تعليمه — شغفه بالأدب والموسيقى — أثر شوبنهاور وفاجنر في تفكيره — أول مؤلفاته — «إنساني وإنساني إلى أبعد حد» «زرادشت» — بقية أعماله — دين نيتشه وفلسفته — وفاته — مدرسته

بدأ التفكير الاجتماعي يظهر جلياً في آداب الأمة الألمانية في خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ويرجع سبب ذلك إلى تغلب النزعة الواقعية على غيرها من النزعات. وكان لهذه النزعة الجديدة أثرها الجليل، فقد بدأت تسير في سبيلها هادئة حتى تغلغلت في نفوس المتأدبين. وكان على رأس القائمين بهذه الحركة الجديدة فريدريك نيتشه الذي أخذ يميل شيئاً فشيئاً إلى الاعتقاد بأن جماعات الناس تهوي إلى أسفل. وقد أرجع أسباب ذلك إلى أن الأدباء لا يعنون إلا بالفرد في منتجاتهم الفنية، في حين أن حاجة الفرد ومتاعبه ومشاكله ليست بالذات حاجة العصر ومتاعبه ومشاكله، وإن حالة الأديب قد تناقض حالة الجماعات البشرية. وعندئذ مال معه بعض صحبه إلى تفكيره هذا، وبدأت الناس تحس بأن ما كتبه الأدباء عن ماجريات الأحوال وشئون الحياة، أو ما كتبوه عن المسائل الاجتماعية والشئون السياسية التي سار ويسير إليها العالم، ليست إلا بعض آراء من شتاتها. ومن ثم أدرك عامة الناس بأن لهم وجوداً، وأنه يجدر بهم أن يعبروا عن آرائهم بصراحة. فأنجبت هذه الحركة أدباء فنانين من طراز جديد، منهم المصلح الاجتماعي، ومنهم الثوري الاشتراكي، ومنهم طبقات الفوضويين. ولنحاول هنا أن نلم بتاريخ حياة فردريك نيتشه لنتعرف مكانه من بين هؤلاء.

* * *

ولد فريدريك نيتشه في اليوم الخامس عشر من شهر اكتوبر سنة ١٨٤٤ م، في قرية «ريكن» Roecken الواقعة بالقرب من «لتزن» Loetzen. وقد يبدو لمن يحدق في صورة نيتشه أو يسمع باسمه أنه يمت إلى أصل بولوني، ولكن الباحثين قد فرغوا من إثبات أصله الألماني. ويرجع التشكك في اسمه

لى أن الألمان الذين كانوا يستوطنون المناطق التي يتغلب فيها لسلافيون لا يرون غضاضة فى صبغ نهاية أسمائهم بالصبغة لسلافية . وكذلك فعلت عائلة نيتشه . أما تكوين رأسه واصفرار ون شعره وزرقة عينيه ، فدليل كاف على أنه ينتمى إلى «الشماليين» ى سكان شمال أوربا .

وكان لفريدريك أب قس ورث عنه نزعته للموسيقى وذكاءه التقد إحساسه المرهف وأعصابه الملتهبة . أما القوة فقد ورثها عن أمه لتى أخذ عنها قوة الارادة ، والقدرة على العمل ، والقوة الحيوية ، قوة مناعة جسمه ضد هجمات أعصابه الثائرة . أما الوعظ والدعاية ا يؤمن به فقد ورثه عن أبويه كليهما ، ولذا كان حب الوعظ الارشاد قويا عنده إلى حد أنه كان يهيم بوقع الكلمة التى ينطق ها . وكان من اجتماع نزعته الاصلاحية إلى قوة إرادته وصدق صيوبته لهيب من النار يسرى في كلماته فتهتدى به الناس وتطمئن ل حرارته فى جو انعدمت فيه حرارة الإيمان .

وليس غريباً أن يكون هذا شأن نيتشه ، فقد كان فى صغره بعلة ذكاء تتقد منذ سنى دراسته الأولى . فقد كتب مذكراته م ١٨٥٨ ، ولما يبلغ الرابعة عشرة من عمره ، بأسلوب واضح ثرن يشف عن ذكاء مبكر ، إذ قال : « أصبحت فى الطور شعرى الثالث . » وكتب أيضاً : « يجب أن أتمرن على القريض كثر من ذى قبل ، وإن أمكن فسأنظم فى كل ليلة قصيدة . » مع كل ذلك لم تخلُ قصائده الأولى هذه من أبيات موسيقية عاذة تحوى معانى مبتكرة . وفى سن الخامسة عشرة نظم قصيدته مروفة باسم « بتغير وطن » ذات النزعة الرومانتيكية . لتف حوله الأدباء الناشئون وألف منهم جمعية أدبية أسماها جرمانيا » . وكان يأمل أن يتلمذ في المستقبل على جين پاول Jean Pau بعد أن مال إلى فنه كل الميل . ولكن غير واحد ن أصدقائه نصحوه بقراءة «هيلدرين» Hoelderin «ونوفاليس» Novalis فقرأها كما قرأ « شكسبير » و « ترسترام شاندى » Tristram Shand وهو فى سن الخامسة عشرة . وكتب إذ ذاك مذكراته : « إنى أقيد كل فكرة طريفة ؛ وقد انضح لي أننى ما قبل الآن كنت غير ملم بشئ من العلوم . »

ولم يكن شغف نيتشه بالأدب أكثر من شغفه بالموسيقى . وكان أحب الموسيقيين إليه « روبرت شومان » (Robert Shumann) الرومانتيكى النزعة ، ولكنه مال بعد ذلك إلى شوبان (Chopin) ، إذ قال عن موسيقاه إنها تمثل جمال ونبل الفكر كما تمثل المرح وعظمة الروح الانسانية والشعور الفياض سواء بسواء » وفضلا عن ذلك فقد وضع نيتشه أيام صباه قطعاً موسيقية قال عنها بعد أن تقدم فى السن : إن « نغماتها » تكاد تكون مطابقة لموضوعات مختلفة من پارسيفال (Parsival) التى ألفها فاجنر (Wagner) بعد عهد الصبا لنيتشه .

وعند ما التحق نيتشه بجامعة « بون » (Bonn) عام ١٨٦٤ كان يرغب فى دراسة اللاهوت ، ولكنه نزع عام ١٨٦٥ إلى دراسة الآداب الكلاسيكية إلى جانب دراسته الأصيلة . غير أنه هجر فيما بعد دراسة علوم الدين وتعلق بالبحث فى العلوم ، ثم رحل إلى « ليبزج » (Leipzig) طلباً لحرية الفكر وحرية الرأى ، ولكنه سرعان ما أدرك « أنه لا يوجد مكان تتوافر فيه حرية الفكر » وكان شوبنهاور (Schopenhauer) قد ساعده على تحرره من عقيدته الدينية ، بعد أن اتصل به فى « ليبزج » التى قال فيها نيتشه : « هنا وجدت مرآة رأيت فيها العالم والحياة كما رأيت نفسى منعكسة بها فى أجلى وضوح ؛ وهنا حدقت فى عين شمس الفن الذى لا نهاية له ؛ وهنا رأيت المرض والبرء ، رأيت المنفى والملجأ ، رأيت النار والجنة » وفى هذا ما يدل بمفرده على مقدار تأثر نيتشه بشوبنهاور ، كما تأثر به بعد ذلك فى أبحاثه الأدبية التى كتبها أثناء دراسته فى الجامعة ، والتى أدهشت أساتذته ، إذ عجبوا لأسلوبه العلمى الرصين . ولكن كل أبحاثه الأدبية لم تكن لتغريه إذ كانت تنقصها الفكرة الانسانية . ودفعه هذا الاتجاه الجديد فى تفكيره إلى تغيير منهج دراسته الذى كان قد صمم عليه . فقد كتب إلى صديق له عام ١٨٦٩ يقول : « إننا دون شك أتباع القدر . فمنذ أسبوع أردت أن أكتب إليك بأنى اعتزمت دراسة الكيمياء وترك دراسة الآداب لن هم أليق بها منى ، وهؤلاء هم الشيوخ . والآن يغرينى شيطان القدر بالأستاذية فى الآداب »

ولم يكن تعرف « نيتشه » إلى «شوبنهاور» أهم ماوقع للأول فى حياته إذ أن تعرفه إلى فاجنر قبل نزوحه إلى « بازل » Basel

كان له أثر عميق فى نفســه . ولم يكن حب « نيتشه » لموسيقى « فاجنر » وليد يومه ، بل لقد اعتبر « نيتشه » صديقه « فاجنر » الممثل لكل الفنون الحديثة التى ارتشفها وهضمها . وبلغت تلك الصداقة أبعد مدى لها سنة ١٨٨٨ عندما قضى كلاهما الصيف فى قرية بالقرب من « لوزرن » Lutzern . وحرص نيتشه على ألا تنتزع الأيام منه هـذه الصداقة ، وود لو أن تبقى صلته بصديقه فاجنر إلى الأبد ، وقال عنها : « لقد كانت أيام تبادلنا فيها الثقة ، أيام مرح وسرور . والحق أنها لحظات لهـا أعمق أثر فى نفسى » . قال ذلك نيتشه عن صديقه الذى أخلص له فقال فيه : « إننى لا أعرف ماذا كان حظ الآخرين من مصادقتهم لفاجنر ، إلا أنى أعرف أن سماءنا لم تنشها سحابة قط » وما ذلك إلا لاعتقاد نيتشه بأن صديقه عبقرى كريم الخلق ، تنطبق عبقريته على وصف شوبنهار للعبقريات

وفى ذلك العهـد ألف نيتشه أول كتبه القيمة الذى أسماه « انحدار التراجيـدية من روح الموسيقى Die Geburt der Tragoedie aus dem Geiste der Musik وأتمه عام ١٨٧١ وقد ضمنه أهم ما وقع له فى حياته الخاصة وصداقته مع فاجنر ، كما ضمنه مراميه الأولى والأخيرة فى الحياة ، ومساس الحاجة إلى الموسيقى . ولقد كتب كتابه هـذا بأسلوب رائع تجلى فيه هيامه بالفنون ، وأثبت قدرته على البحث كعلامة . ولم يحجم نيتشه عن أن يقول رأيه فى الفنون الاغريقية وفى الاغريق . ويعد كتابه هذا من أروع الكتب الكلاسيكية التى تناولت الفن من عديد نواحيه التاريخية والفلسفية والعقلية . فلقد حاول نيتشه « أن يرى العلوم والمعارف بعين الفنان ، وأن يرى الفن عن طريق الحياة » وهاجم فى كتاب آخر له أسماه « نظرات لا تتفق وروح العصر » Un zeitgemaessen Betrachtungen ووضعه فيما بين سـنة ١٨٧٣ و ١٨٧٥ — عديد الاتجاهات فى الثقافة الألمانية . فقد قال بأن ألمانيا تعيش فى حالة همجية من الثقافة . وأفصح فى هذا الكتاب عن طبيعة الحقائق الواقعية وما يقع تحت الحس فى كل آن . وطالب بأن يكون الفن ممثلا للعصر والحياة . وفى هذا الكتاب ينزع إلى المثل العليا ، كما يميل فى كتابته إلى الحكم المشبع بروح الفكاهة ، وفى كتابه الذى أسماه « بعض فوائد ومضار التاريخ في الحياة » Von Nutsen und Nachteil der Hisioriefürdas Leben قال بأن كثرة المعلومات ليست وسيلة الثقافة ، ولا هى دليل عليها إذ المسألة متعلقة بالسمو فى الحياة . أما التخمة الناتجة عن التهام التاريخ وحشره فى الرأس حشراً فانها تجعل الحياة مريرة كما تجعلها خطرة . فالتاريخ يضعف الشخصية ، ولا يمكن لشخصية أن تتحمله إلا إذا كانت غاية فى القوة . أما ضعاف الشخصية فالتاريخ يؤيدهم ، إذ يصبحون دائرة معارف متنقلة ، ولا يكون لهم رأى ، وإن جرأوا على ذلك فهو رأى محايد ، ليس لشخصيتهم فيه أثر . ومن رأيه « أن وظيفة الانسانية أن تعمل دون انقطاع لتخرج إلى العالم شخصيات عظيمة » . والذى جر نيتشه إلى هذا التفكير هو شدة تأثره « بشوبنهاور » و « فاجنر » ، غير أن أثرها فيـه لم يدم إلا بعض الزمن . فقد أدرك عند ما شاهد حفلات « بارويت » Bayreuth — الحفلات الموسيقية والتمثيلية السنوية الهامة — أدرك أنه خدع في رأيه ، فقال بأن فاجنر يتخذ وسائل خشنة جامحة لإظهار تلك الفخامة العاصفة . وذلك الاضطراب العظيم المخيف وإن كان مزركشاً ومحلى بزخارف بهيجة أبغض الأشياء إلى نيتشه .

وفى سنة ١٨٧٦ أخذ نيتشه فى دراسة الفيسيولوجيا والطب والعلوم الطبيعية . ومن ثم أخذ يدرس من جديد جميع المسائل التى عالجها من قبل . وكتب في فترة العطلة التى قضاها فى جنوب ألمانيا كتاباً أسماه « الخلاص » Loloesurq ، وهو أول جزء من كتاب جمع فيـه مختارات أقواله واختار له اسماً آخر هو : « إنسانى وإنسانى إلى أبعد حد » - Menschliches , Allsumen schliches وكان ذلك عام ١٨٧٨ . ولما أن أهدى كتابه هذا إلى صديقه فاجنر ليطلعه على آرائه الجديدة بعث إليه فاجنر بقطعته الموسيقية « بارسيفال » ونجم عن ذلك فتور بين الصديقين ، إذ تمسك كل منهما برأيه . ولعل كتاب « إنسانى ، وإنسانى إلى أبعد حد » هو كما أسماه صاحبه « كتاب لأحرار الفكر » وفى هـذا الكتاب من التضارب فى القول ما جعل الناس تتحدث عنه . فبينما تراه فى هذا الكتاب ملماً بكل شئ سليم النطق ، تراه غامضاً فى بعض مواضع الكتاب مهتاج الأعصاب مريضاً . والواقع أنه كان يقاسى الآلام ، ولكنه كان يحاول الكلام كمن لم يمس بسوء . وكان يريد الاحتفاظ بهدوئه ليهزأ بالعالم ، كما قال بعد ذلك بعشر سنين . والحق أن نيتشه كان ثائراً على نفسه .

« يتبع » ابراهيم ابراهيم يوسف